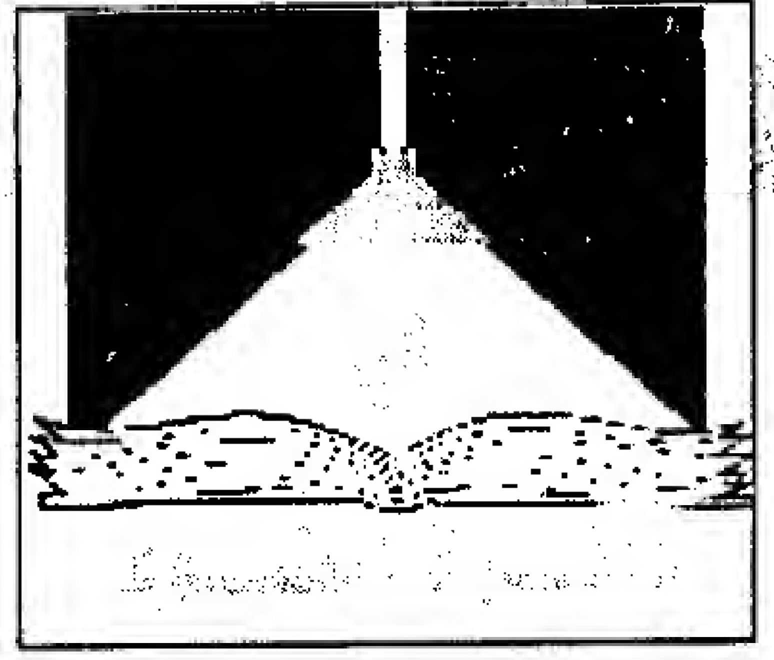


صراع الحضارات أم هيمنة الحضارة الغربية؟

بقلم : د. محمد يحيى

اتسع نطاق الجدل في الآونة الأخيرة حول المقولة التي عرفت باسم: «صراع الحضارات» والتي ولدت من خلال دراسة لأستاذ جامعي أمريكي هو «صمويل هنتنجتون» سعى فيها من وجهة نظره إلى تحليل الوضع العالمي تحليلاً استراتيجيًا مستقبليًا على ضوء التغيرات في السنوات الماضية فيما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية أو الشيوعية، وهي نفس المتغيرات التي ألهمت زميل له هو «فرانيس فوكرياما» بتكوين مقولة حول «نهاية التاريخ» كان لها هي الأخرى نصيب في إثارة الجدل والنقاش. وقد انطلق «هنتنجتون» من واقع زوال القطب الشيوعي في الحضارة الغربية إلى طرح افتراضات حول المسار الذي سوف تأخذه السياسة الدولية مع الدخول في القرن الميلادي الواحد والعشرين، وانتهى إلى أن الحضارة الغربية (التي رأى أنها تشمل الشعوب البيضاء أو ذات الأصل القوقازي، والمسيحية الديانة، والأوروبية الفكر والثقافة) سوف تواجه بخصم عنيد محتمل في المستقبل القريب يطرح تحديه على خلفية حضارية ثقافية تتحرك أمامها التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والعسكرية وهذا الخصم هو بالمقام الأول الحضارة الإسلامية ثم الحضارة الآسيوية الشرقية أو الكتلة البوذية.

وذهب «هنتنجتون» أو مفسروه إلى أن التنافس والصراع سوف يكون طابع العلاقة بين الحضارات المذكورة ليس فقط حول النفوذ السياسي والاقتصادي بل أيضًا حول ـ وبسبب ـ الثقافة والقيم الحضارية والاجتماعية والعقائد الدينية والمذاهب الفكرية.

البيان

وقد أثارت هذه المقولة فور ذيوعها ردود فعل عديدة كان أغلبها على الجانب الصحفي السطحي المتسم بالعصبية. وكان أول وأبرز ردود الفعل هذه، وهو ما سبق لكاتب هذه السطور أن تعرض له، أن صدرت بيانات وتصريحات ودفاع من جانب رموز إسلامية رسمية في بلدان معينة تنفي أن يكون الإسلام يسعى للمواجهة والصراع، وتؤكد أنه يريد التعاون والمشاركة مع الغرب، وراحت هذه الأصوات تعيد تكرار المقولات المألوفة التي نسمعها كلما اتهم الغرب الإسلام بالتعصب أو التطرف أو الإرهاب من أن الإسلام دين تسامح ومحبة واحترام واعتراف بالآخرين. ورأى كاتب هذا المقال أن رد الفعل هذا كان المقصود بدايةً عن الترويج الإعلامي الغربي لمقولة «هنتنجتون». حيث بدا أن الدوائر السياسية والإعلامية في الولايات المتحدة بالذات أرادت أن تخرج من الدول الإسلامية ولا سيما الواقعة تحت نفوذها بتطمينات حول نوايا المؤسسات والتوجهات الإسلامية نحو الغرب بعد أن كثر الحديث حول ما يوصف بخطر التوسع الأصولي الإسلامي. أي أن الهدف من الترويج الدعائي للمقولة على نطاق شعبي كان حثًا على رد فعل دفاعي اعتذاري من الجانب الإسلامي ينكر فيه هذا الجانب أية نوايا عدوانية ضد الغرب، ثم يلتزم علنًا وأمام العالم بالموقف الفكري والعملي الذي يريده الغرب من المسلمين ألا وهو موقف الانضمام إلى توجهات الغرب وعلمنة الفكر والعقيدة الإسلامية وتغريبها إلى الحد الذي تصبح فيه مماثلة لما عند الغرب من عقائد، كما تصبح فيه مألوفة مأمونة الجانب لدى الجمهور الغربي. إذن كان الترويج الواسع لمقولة صراع الحضارات على المستوى الإعلامي مدبرًا ليقوم الجانب الإسلامي برد فعل يخدم الغرب.

لكن هذا الرأي ـ على وجاهته ـ لم يمس المقولة نفسها قدر ما لمس أحد الجوانب السياقية في ترويجها الإعلامي. ومقولة «هنتنجتون» تحفل بالجوانب التي تثير الفكر، ولعل أول هذه الجوانب هو سبب اختراع أو تصور خصم مستقبلي للحضارة الغربية بعد زوال الخصم السوفييتي ولكن مع الفارق؛ لأن الخصم الشيوعي كان خصمًا من داخل الحضارة

ذاتها؛ بينما الخصوم المطروحون هم من خارج تلك الحضارة؛ إلا إذا فسرنا الحضارة الصينية واليابانية على أنها متأثرة فكريًا وثقافيًا بالغرب سواء في شيوعية الصين، أو في انغماس اليابان في التكنولوجيا المادية ذات الأصول الغربية. إن هذه الرغبة في خلق أو تصور الخصوم قد تبدو غير مفهومة إلا إذا تصوَّرنا وجود نية عدوانية دفينة لدى دوائر أمريكية سياسية وفكرية تريد التعبير عنها من خلال اختلاق الأعداء لإعلان الحرب عليهم والتنفيس عن هذه الرغبات العدائية.

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة فإذا أردنا أن نكسب طرح «هنتنجتون» مصداقية فكرية أكبر لجاز لنا القول إن اختراع وتصور الأعداء والخصوم المستقبليين بعد زوال خصوم الماضي يدل على رغبة عارمة لإثبات الذات والهوية، ولا يتأتى هذا إلا بمثول منافس وخصم عنيد أمام هذه الذات والهوية تثبت وجودها وجدارتها في الوقوف أمامه والتسابق والتنافس ثم الصراع معه، ولعل «هنتنجتون» هنا يعيد بوعي أو بدون وعي مقولات «هيجل» المشهورة في الفكر الغربي حول الذات والآخر وإثبات الذات لوجودها فقط من خلال الصراع مع الآخر. وهناك جانب ثقافي عملي آخر لعملية اختراع الخصوم أو الأعداء وهو محاولة بث الحيوية والنشاط واستنهاض الهمة في الحضارة الغربية بالتحذير من وجود أعداء خطرين على الأفق والتلويح بهم؛ ذلك أنه قد ساد الإحساس في العقود الأخيرة وبالذات في دوائر السياسة والأكاديمية الأمريكية اليمينية المحافظة بأن الحضارة والثقافة الغربية تتعرض للانهيار والتدهور والتآكل من الداخل لا سيما على المستويات الأخلاقية والإنتاجية (بل لقد اتخذ انهيار الكتلة الشرقية نفسه على أنه من علامات هذا الانهيار)، وإزاء هذا التصور المقلق بوجود تدهور ذاتي داخلي في هذه الحضارة كان رد الفعل الطبيعي بالنسبة للدوائر المدافعة عنها هو اختلاق عدو خطير وتحد كبير يقف خارج هذه الحضارة والتلويح بهذا الخطر والعدو كوسيلة لحث واستثارة طاقات الفعل والاستجابة والنهضة الثقافية عند أبناء الحضارة الغربية ليتجاوزوا الضعف والتآكل.

> كانت الردود على النظرية اعتذارًا وبيانًا للموافقة على علمنة الفكر والعقيدة

يمكن القول من هذه الزاوية: إن مقولة صراع الحضارات لها جانب قد نسميه بالسياقي، ونعني به: أن لها دوافعها وبواعثها في إطار السياسات والأوضاع الثقافية في الغرب وبالتحديد لدى دوائر أمريكية ذات نفوذ تريد الحفاظ على الهوية الحضارية الغربية وتجديد حيويتها وقدراتها النزالية التنافسية بطرح خصوم المستقبل الألداء، وإفهام أبناء الحضارة أنه إذا كان العدو السوفييتي وكتلته قد زالا فإن هناك على الأفق من الخصوم الأشد (وهم على المستوى الحضاري ذاته) الذين ينبغي الحذر منهم، والاستعداد لدفع كيدهم، والتقوي والنهضة لاحتمالات المنافسة والصراع معهم. ولكن إثبات الذات والهوية في وجه تحدي الآخر قد لا يكفي هو الآخر لتفسير مقولات «هنتنجتون» واستقصاء جوانبها وأبعادها لا سيما أن الآخر المطلوب التحذير منه ليس كله وهمًا مختلقًا بل له صفات تستحق التأمل فيها. إن قائمة أعداء وخصوم متنافس الغرب تستحق الدراسة.

وأول ما يلفت النظر في هذه القائمة أنها ليست على مستوى واحد من الطرح فهي تجمع بين خصوم واقعيين فعليين قائمين (الحضارة الآسيوية الناهضة أو البوذية أو الصينية اليابانية) وخصوم محتملين ليسوا سوى إمكانية قد تتحقق أو لا تتحق (الخصم الإسلامي) كما تخلو منها أسماء حضارات وثقافات قائمة ذات قوة نووية مؤكدة وقوة اقتصادية ذات إمكانات قوية (الهند، إسرائيل، البرازيل، جنوب أفريقيا وكتلة الدول الموالية)، فلماذا نجد في مقولة صراع الحضارات قوى قائمة ومؤكدة قد وضعت بجانب قوى محتملة على قائمة الخصوم؟ ثم لماذا تخلو القائمة من قوى أخرى مؤكدة؟ قد يقال في تفسير هذا الأمر الأخير أن تلك القوى المحذوفة لا تمثل خطرًا على الحضارة الغربية في المستقبل حتى لو تسلحت بالأسلحة الذرية وملكت زمام القوى الاقتصادية الكبيرة، فالعلاقة مع إسرائيل اليهودية أوضح من كل بيان؛ والبدهي أن أمريكا تعتبر هذا الكيان امتدادًا لها

وسط الساحة العربية الإسلامية؛ فإسرائيل قوة مضافة لصالح الحضارة الغربية حتى ولو كانت يهودية الدين سامية الأصل عبرانية اللغة شرق أوسطية الموقع، فهي بمثابة الطليعة الزاحفة للجيش أو الحصن المتقدم. أما البرازيل فربما يقال إنها بنت الغرب بدينها الكاثوليكي ولغتها البرتغالية وتلاحمها الاقتصادي العضوي مع قارتها التي تعتبر من لواحق الغرب. ولا ننسى أن مقولة «هنتنجتون» تقيم أساسها على أطروحات العرق والأصول الأوروبية، وينطبق الشيء نفسه على جنوب أفريقيا حتى على الرغم من الكلام الكثير الذي قيل حول إنهاء نظام سيطرة الأقلية البيضاء؛ لكن البلاد تبقى مرتبطة بالحضارة الغربية على مستويات أعمق من العرق هي اللغة والمسيحية والاقتصاد.

لكن الهند الهندوكية الآسيوية تبقى هي اللغز في الاستبعاد من قائمة الخصوم. فلماذا استبعدت الهند وهي دولة نووية التسلح فيما يقول الغرب نفسه، وهم كذلك يقولون لنا إنها قوة اقتصادية ناهضة تشبه في عدد سكانها وطبيعة نشاطاتها الاقتصادية (بل تفوق) ما تسمى **باقتصاديات النمور الآسيوية**؟ لماذا استبعدت الهند ووضعت الصين واليابان وقوى آسيوية أخرى على قائمة خصوم الغرب المحتمل أن يتصارعوا معه؟ هل ذلك لأن قوة الهند الذرية والاقتصادية هي قوة مكرسة علنًا ضد المسلمين حول الهند في بنجلاديش وباكستان وشمالها في وسط آسيا بل وإلى إيران والخليج أو نزولاً إلى ماليزيا وإندونيسيا؟ وإذا كانت الهند مستبعدة من قائمة خصوم الغرب في القرن القادم برغم أنها ليست قوة غربية وبرغم إمكاناتها العسكرية والاقتصادية الهائلة فقط لأنها قوة ستنهض بدور المواجهة للإسلام حولها؛ فماذا يدلنا ذلك عن مقولة صراع الحضارات؟ إن الدلالة الواضحة هي أن تلك المقولة لا تنبني فقط على مبدأ الدفاع عن الحضارة الغربية والانتصار لإثبات ذاتها وهويتها بل إنها تقوم أيضًا على منطلق ديني معاد للإسلام يقبل بأن يتحد الغرب الأبيض المسيحي الأوروبي الثقافة مع حضارة سمراء هندوكية شرقية آسيوية ولا يتخذ منها خصمًا محتملاً رغم إمكاناتها القوية الواضحة؛ لا لشيء إلا لأن هذه الحضارة أو الثقافة قد حددت بالفعل استراتيجياتها للمواجهة؛ بحيث تتصادم لا مع الغرب (أمريكا أو روسيا أو أوروبا) بل مع الكتلة الإسلامية المجاورة لها بل وقد تتصادم كذلك مع الكتلة الصينية التي يخشاها الغرب وكان قد سبق لهم صدام من قبل.

وإذا عدنا إلى قائمة الخصوم كما تحددها مقولة صراع الحضارات فسوف يستوقفنا المزج كما قلنا بين القوى الموجودة بالفعل والقوى الموجودة فقط بالاحتمال النظري غير المؤكد؛ مع إعطاء الأولوية في الخطورة ودرجة التحذير لهذه القوى الأخيرة، ونعني بها الإسلام. فالتركيز يجري على الخطر المحتمل من جانب الحضارة أو التيارات الإسلامية قبل أي شيء آخر؛ رغم أن هذه التيارات تعاني من ضعف شديد أو على الأقل تعاني من هجمة شرسة ليس فقط من جانب الغرب بل من جانب أنصار وعملاء الغرب داخل الدول الإسلامية نفسها سواء أكان هؤلاء من التيارات العلمانية المتغربة أو من الدوائر الحاكمة. وهنا يثور التساؤل: لماذا يوضع الإسلام الجريح - كدول وتيارات - موضع الخطر الأسمى وهو مجرد احتمال قوة؟ بينما لا تذكر القوى الفعلية المؤكدة التي يعاني منها الغرب بالفعل الآن إلا في المرتبة الأخيرة، وربما على سبيل العرض أو لإعطاء الانطباع بأن الإسلام لا يستهدف وحده؟ إن وجود إجابة على هذا السؤال من الأهمية بمكان، إذا كان الأمر قضية تحذير حقيقي من خصوم سوف يجري معهم الصراع في السنوات القادمة كما يقال؛ فلماذا لا يتصدر القائمة الخصوم والمنافسون القائمون فعلاً ويتصدرها خصوم محتملون بدرجة ضعيفة؟ إن الشكوى الآن في الغرب هي من المنافسة الاقتصادية الطاحنة من جانب الصين واليابان وسائر الاقتصاديات الآسيوية الناهضة مما يهدد حقيقة وفعلاً ربحية الصناعة والتجارة الغربية ويهدر قدرتها على المنافسة، بل إن الشكوى كانت وما زالت قائمة من التنافس الاقتصادي الشديد داخل الكتلة الغربية ذاتها (ألمانيا في مواجهة دول أوروبا الغربية وأوروبا الغربية في مواجهة أمريكا... إلخ) فلماذا والحالة هكذا ينحَّى هؤلاء الخصوم القائمون الفعليون ويصدَّر الإسلام للعداوة وهم لم ينافس ويصارع الغرب بعدُ بدرجة تمثل أي تهديد؟ وربما يقال إن هؤلاء الخصوم اقتصاديون أساسًا في تهديدهم بينما تهديد الإسلام المحتمل أو

> كيف أسقطت النظرية طروحات اللادينيين في البلاد العربية!؟

منافسته هي على المستوى الثقافي الحضاري أو العقائدي الأوسع وهو ما يهم الغرب في الجوهر على الرغم من إعلاء شأن المادة والنقد والاقتصاد في الحضارة الغربية. وأيًا كانت الحال فإن وضع الإسلام بالذات منفرداً على أول قائمة الحضارات التي سيجري الصراع معها من جانب الغرب في المستقبل القريب على الرغم من وجود خصوم يفترض أنهم أجدر منه بتلك المكانة لذو دلالة.

يدل هذا الوضع المنفرد على أن تصور الغرب للصراع القادم يراه عقائديًا في جوهره وليس كما يذهب العلمانيون في الأقطار العربية الإسلامية اقتصاديًا ماديًا وإن كان بالطبع ينطوي على هذا الجانب. كما يدل أيضًا على أن الإسلام كدين وعقيدة مستهدف بذاته وليس أيضًا كما يذهب العلمانيون وكارهو الإسلام في بلادنا إلى أنه قد استهدف بالعداوة من الغرب بسبب تصرفات من يسمون بالمتطرفين أو الأصوليين أو الإرهابيين على الجانب الإسلامي. لقد أصبح من المقررات الثابتة في هذه الأيام أن نسمع ونقرأ تصريحات لمسؤولين كبار ورموز دينية تبرئ الغرب من تهمة العداء للإسلام واستهدافه وترمي باللوم على المسلمين الذين أتوا - في زعم هذه التصريحات - من الأفعال المتطرفة والمشوِّهة لصورة الإسلام ما جعل الغرب يخشى الإسلام ويعاديه، لكن هذه المزاعم تفضحها وتنقضها مقولة صراع الحضارات، فمهما بلغت شراسة ما تسمى بأفعال التطرف (ونلاحظ أن معظمها ينصبُّ على داخل المجتمعات الإسلامية ذاتها وليس على الغرب مباشرة) فإنها لا تسوِّغ أن يطرح أستاذ جامعي بحثًا علميًا يفترض فيه الموضوعية يضع الإسلام على رأس قائمة الأخطار المهددة للحضارة الغربية، ويسقط أو يقلل من الأخطار القائمة بالفعل من ثقافات وأيديولوجيات ودول وأنظمة قوية وقائمة. لا يمكن لأعمال التطرف وحتى الإرهاب أن تسوِّغ هذا الطرح كما يتبجح العلمانيون الذين يهتمون بالدفاع عن الغرب وتسويغ توجهاته أكثر بكثير مما يهتمون بالإسلام كما يدعون وإلا، فقد بدر من الصين مثلاً من الأعمال العدائية للأمريكان مثلاً في الماضي القريب ما كان يدعو إلى اتخاذها العدو الأول في الحاضر والآتي ومع ذلك تجد من يسوِّغون الصداقة والتعاون معها.

إن مقولة «هنتنجتون» حول صـراع الحضارات آتت بنتيجة ربما لم تكن متـوقعة منها وهي أنهـا أسقطت ودحضت أحـد أهم طروحات اللادينيين في البلاد العربية في الوقت الراهن وهو أن المسلمين مسؤولون بسلوكياتهم عن إساءة صورة الإسـلام في الغرب مما دفع الغربيين إلى اتجـاه العداوة، ذلك أن طرح «هنتنجـتـون» عن الجـوانب العـمـيـقة والجـوهرية في عـلاقـات الحـضـارات ولا يتوقف عـند أعمـال عنف أو تطرف هـنا أو هناك على زعم صحتها، وهو إذ يتحـرك على هذا المستوى الأعمق يصدق مع النفس (أي مع الذات الحضارية الغـربية) ويرى أن الإسلام سوف يكون هو الخـصم الأكبر للغرب وليس أي من الحضـارات الأخرى. صحيح أن «هنتنجـتـون» يتحدث كسائر الصحف الغربية عن الإرهـاب والأصولية والتشدد الإسلامي لكن كل هذه الدعاوى تبدو فـجة وواهية بل وكاذبة إذا مـا وضعت بجانب الحقـيقة التي يدركـها الجـمـيع وهي أن الإسلام كـقـوة دولية فـاعلة ومـؤثرة ليس موجـودًا الآن بالحجم الذي يسوِّغ كل هـذا التهويل؛ لذلك تبـقى الحقيـقة أو الاستنتاج المنطقي بأن استهداف الإسلام بتسميته الخصم الحضاري للغرب لا ينطلق إلا من دافع العـداء الصرف لـهذا الدين والعـقيـدة. وهناك الدوافع التي ألمحت إليها من قبل باستنهاض همم الغربيـين وحشد قواهم وتوجيهها ناحيـة العدو الخـارجي وليس الداخلي مع إيجاد فـرصة للذات الحـضارية الغربية لكي تتـحدد وتتجدد في مواجهة الآخـر. وفوق هذه الدوافع نجد أن أطروحة «هنتنجـتون» ترمي إلى مسـاعدة الدوائر الحاكمـة في الغرب على تحديد اسـتراتيـجية للـمستـقبل بوضع العـدو المحتمل أمـام أنظارهم. وإذا تتبـعنا مسار السـياسات الغربيـة ولا سيمـا الأمريكية في الأعوام الأخـيرة لوجدنـا أن هذه الأطروحة قد أصـبحت بالفـعل تمثل النور الهـادي والمرشد للتـحركـات الغربيـة عن عداء ومـلاحـقة للإسـلام ومن تحريض للأنظمـة والدوائر التابعة على مواصلة هذه الملاحقة والاضطهاد للحركات الإسلامية. وهكذا تتحول الأطروحة النظرية إلي واقع عملي منظور.

وما تزال مـقولة صراع الحضـارات تجـلِّي لنا من الجوانب الكاشفة الشيء الكثـير الذي ينتظر البحث في مقال قادم بإذن الله.